(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله خاتم الأنبياء والمرسلين، فاللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحابته أجمعين، وبعد:

إننا نعيش في أيام مباركة، وذكرى عطرة، حيث يهلّ علينا شهر ربيع الأول، الذي يسمى بربيع الأنوار، حيث وُلد فيه النبي المختار، نبي سمت به أخلاقه حتى وصل إلى درجات الكمال التي لم تعطى لغيره، ولذلك مدحه ربه في كتابه بقوله: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (الملك: 14).

نعيش مع أخلاق هذا النبي الكريم، حتى نتقرب من رب العالمين، فالأخلاق في الإسلام أساس متين، بُني عليها هذا الدين، ولذلك لما تحدث النبي صلى الله عليه وسلم عنها حصر بعثته فيها لعلمه بقيمتها عند ربنا العظيم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ρ: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) رواه البيهقي في السنن الكبرى.

إذاً فحسن الخلق شأنه عظيم، ومن الخطأ أن نظن أن حسن الخلق من قبيل العادات الاجتماعية فقط، بل هو من صميم العبادات، فهو من أهم ثمرات العبادات، ولذلك لو أردنا ان نتأمل ذلك فلننظر لأركان الإسلام العظمى، إذا نظرنا للصلاة فقد قال تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ) هل لمجرد الركوع والسجود والحركات والسكنات؟ كلا، قال تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) (العنكبوت: 45)، أي تُبعد عن الأخلاق السيئة، ولذلك في مسند الإمام أحمد (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا، وَصِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: " هِيَ فِي النَّارِ "، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي الْجَنَّةِ).

أما عن الزكاة فقد قال تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) لماذا؟ لتكون ضريبة تؤخذ منهم هكذا عنوة؟ لا، قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) (التوبة: 103) تطهرهم من الأخلاق السيئة كالبخل والشح، وتعودهم على الأخلاق الحسنة كالجود والعطاء.

وكذلك الصيام والحج حيث تسموا بهما أخلاقنا.

إذاً من أهم ثمرات أركان الإسلام العظمى حسن الخلق، ولذلك لما أمرنا الله بحسن الخلق في القران اختلف عن غيره من الأوامر، فالله جل وعلا لما امرنا بالصلاة قال: (أقم الصلاة) وفي الزكاة قال: (آتوا الزكاة) وغيرها من الأوامر إلا حسن الخلق قال: (وسارعوا) أسرع لأن في حسن الخلق النجاة العظمى، قال جل وعلا: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ

فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134)) (آل عمران: 133-134).

الأخلاق هي أوسع الطرق التي توصلك إلى الجنة ففي سنن الترمذي (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ρ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، فَقَالَ: تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ).

بل هناك أمور عجيبة مخبأة في حسن الخلق لا يعرفها كثير من الناس، فأهل الأخلاق الحسنة ربما يأكلون بالنهار وهم عند الله من الصائمين، فالملائكة تكتبهم صائمون وهم يأكلون، وربما بعدما صلى العشاء ونام هو عند الله من القائمين بالليل يقوم يصلي، كيف هذا؟ إنه نائم؟ كل هذا عن طريق حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم وإن كان مفطرا ودرجة القائم وإن كان نائما، ففي سنن أبي داود: (عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ρ يَقُولُ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَاتِ قَائِمِ اللَّيْلِ صَائِمِ النَّهَارِ).

فإذا ما أتينا لليوم العظيم يوم القيامة هذا اليوم الشديد، يوم يحتاج الإنسان فيه إلى الحسنات لتثقل كفه الميزان فيكون من أهل النجاة، والسؤال هل لحسن الخلق علاقة بثقل الميزان يوم القيامة؟ الجواب: أثقل شيء يوضع في الميزان ويؤدي لنجاة العبد حسن الخلق، ففي سنن الترمذي: (عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، أَنَّ النَّبِيَّ ρ قَالَ: مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ).

بل من أسرار حسن الخلق أنه يقربنا من النبي صلى الله عليه وسلم، الجميع يتمنى أن يرى النبي صلى الله عليه وسلم ولو لحظات في المنام، فما بالنا أن نكون من جلسائه ومعه في الجنة يوم القيامة، ونتمتع بمجالسته وبنور وجهه، كيف هذا؟ عن طريق الأخلاق، كلما حسنت الأخلاق كلما قربتك من النبي ρ ومن مجلسه يوم القيامة، وكلما ساءت كلما أبعدتك عنه إلى أن تصل بالعبد إلى النار، ففي سنن الترمذي: (عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ρ قَالَ: إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا).

أخلاق الإسلام الحقة حينما طبقها المسلمون كما ينبغي دخل الناس في دين الله أفواجا، فهذه بلاد جنوب إفريقيا وشرق أسيا كيف داخلها الإسلام؟ عن طريق حسن أخلاق التجار، فهم لا يخدعون ولا يغشون، يبينون للناس الثمن الحقيقي للسلعة وأن هذه جيدة، وأن هذه ليست جيدة، فكانوا يُسألون لماذا تفعلون هكذا؟ يقولون: لأن الله امرنا بهذا في الإسلام فدخل الناس في الإسلام أفواجا، أكبر دوله في مسلمة في عدد المسلمين حاليا هي اندونيسيا عدد المسلمين فيها يتجاوز 231 مليون مسلم، كيف دخل الإسلام عندهم؟ عن طريق حسن أخلاق التجار.

ومن هنا ينبغي أن ننتبه في تلك البلاد أن أخلاقنا يربطها الناس بديننا، فكم من مسلم أساءوا لدينهم عن طريق سوء أخلاقهم في تعاملهم مع غيرهم، و يحاسبون عند الله أشد الحساب على ذلك لأن شوهوا صورة الإسلام عند غيرهم، وكم من مسلم هنا حسنت أخلاقه في حياته وتجارته وتعاملاته، وربما دخل الناس في دين الله بسببه وهو لا يدري أنه من أهل الأجر العظيم بسبب أخلاقه.

فاللهم حسن اخلاقنا في الدنيا والآخرة يا كريم.

كتبه فضيلة الشيخ / محمد منصور محمد، مبعوث وزارة الأوقاف المصرية إلى البرازيل.